الفصل الأول

حياة عبد الله بن أبي عصرون

١ـ من هو ابن أبي عصرون.
٢ـ عبدالله بن أبي عصرون ونور الدين محمود بن زنكي.
٣ـ عبدالله بن أبي عصرون وصلاح الدين الأيوبي.
٤ـ عبدالله بن أبي عصرون يصاب بالعمى.

obeikandl.com

obeikandl.com

من هو ابن أبي عصرون:

هو الإمام شرف الدين أبوسعد، عبدالله بن محمد بن هبة الله بن علي بن المطهر بن أبي عصرون بن السري التميمي الحديثي، ثم الموصلي[1] ثم الدمشقي[2]، مفتي العراق والشام وأحد الأعلام المشهود لهم[3].

وكان مولده بالموصل عام ٤٩٢هـ وقيل عام ٤٩٣هـ[4]. ومن يستعرض

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٣.
المنذري: التكملة لوفيات النقلة ١/٢٠١.
الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٥.
الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٣-١٩٤م.
الحسيني: طبقات الشافعية ص ٨٠/٨١.
أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة ٦/١٠٩.
ابن طولون الصالحي: قضاة دمشق ص ٤٩.
عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٢.

(٢) ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥٠.

(٣) العدوي (محمود): الزيارات بدمشق ص ٧٠.
ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص ١٥٠.

(٤) الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر. قسم شعراء الشام ٢/٣٥١. ويحدد المولد في المحرم ٤٩٢هـ.
المنذري: التكملة لوفيات النقلة ١/٢٠١ ولد في الموصل ٢٢ ربيع أول ٤٩٢هـ
أبوشامة: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين. بيروت دار الجيل ٢/١٥٠ يقول المولد اوائل ٤٩٢هـ مؤيد للاصفهاني ولعلها روايته في كتاب الروضتين.
ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ص١٥٠ الولادة في ١٢ ربيع أول عام ٤٩٢هـ. =

. . . . . .

= الذهبي: المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ٢/١٥٩. الولادة عام ٤٩٢هـ.

السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٢ ويقول ولد عام ٤٩٣.

الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٥ يقول ولد في ربيع أول ٤٩٣هـ.

المقريزي: السلوك ق١/ جـ ١/ ١٣٠ مولده أول عام ٤٩٢ هـ.

النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٩٩ يقول ولد في ربيع أول ٤٩٢هـ أو ٤٩٣هـ.

ابن طولـون: قضاة دمشق من الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ص ٤٩ الولادة ربيع أول ٤٩٢ أو ٤٩٣هـ.

العدوي: كتاب الزيارات بدمشق ص ٧٠ ويقول مولده ربيع أول عام ٤٩٢ أو ٤٩٣هـ.

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣ يقول ولد في ربيع أول ٤٩٢ أو ٤٩٣هـ.

البغدادي (اسماعيل باشا): هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين ١/٤٥٧ يقول ولد عام ٤٩٢هـ دون الشهر، واليوم.

الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ١٩٢٣م ٤ ص ٢٨١ ويقول الولادة ٤٩٢ دون اليوم والشهر.

عبدالقادر بدران: منادمة الأطلال ص ١٣٢ ويقول: الولادة بالموصل إما عام ٤٩٢ أو ٤٩٣هـ.

ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥٠ وقد حدَّد اليوم والشهر وقال الولادة امّا في المحرم عام ٤٩٢هـ أو ربيع أول ٤٩٣هـ.

عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٢ ويقول: الولادة في ٢٢ ربيع أول ٤٩٢ هـ بالموصل.

ونلاحظ أن الخلاف ينحصر في زمن ولادته تقريبا بروايتين رواية تقول أوائل ٤٩٢هـ والثانية تقول ربيع عام ٤٩٣هـ.

العدوي: كتاب الزيارات بدمشق ص ٧٠ ويقول مولده ربيع أول عام ٤٩٢هـ أو ٤٩٣.

روايات المؤرخين المعاصرين أو من نقل عنهم من المتأخرين يلاحظ الخلط الحاصل في زمن ولادته مما يجعلنا غير قادرين على الجزم بتاريخ محدد نقبله كتاريخ لولادته خاصة وأن المؤرخين الأكثر معاصرة مختلفين اختلاف غيرهم في هذا الميدان.

ولعل الخلط الحاصل بين المؤرخين المعاصرين في تحديد تاريخ قاطع لزمن ولادة أبن أبي عصرون يعود إلى أن المؤرخين كانوا لا يهتمون بزمن الولادة خاصة اذا لم تكن الشخصية من الشخصيات الهامة التي يتوقع لها المستقبل الزاهر كأبناء الحكام والامراء ومن اليهم.

وشخصية ابن أبي عصرون لم يهتم بتحديد زمن ولادتها لأنه ليس من الأهمية بمكان في أول حياته أو لم يكن يتوقع له المستقبل الزاهر، ولكن بعد أن اشتهر في الحياة ونال طرفاً من علو الجاه في ميدان العلم والقضاء تركزت أعين المؤرخين عليه وذكروا زمن وفاته باليوم والشهر والسنة دون خلاف فيما بينهم عكس اختلافهم في زمن الولادة.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الخلاف لا يقلل من شأن ابن أبي عصرون ولا ينال من مكانته العلمية التي وصلها في ميدان القضاء والحكم. ولو تمعنا في مجرى تاريخ حياة ابن أبي عصرون الأولى لظهرت لنا شخصيته الفذة، حيث التفت ابن أبي عصرون منذ نعومة أظفاره إلى مراكز العلم ونهل منها وارتشف من رحيقها الحلو ما لذّ له.

وتجمع المصادر والمراجع المتوفرة بين أيدينا على أن ابن أبي عصرون لم يترك وسيلة من وسائل العلم الاّ استغلها فنراه قد نشط في مسقط رأسه الموصل وتتلمذ على مشايخها في شتى العلوم والفنون فأخذ القراءات عن

الشيخ أبي الغنـائم السلمي شيخ القـراءات[1]، وتفقـه على عبـدالله بن القاسم بن الشهرزوري المُتوفّى عام ٥١١هـ[2]. ثم على أبي علي بن عمّار[3] وأبي محمـد بن خلده[4]، وسمـع علي بن احمـد بن طوق جدّه لأمـه[5]، والحسين بن نصر بن خميس[6].

(١) المنذري: التكملة لوفيات النقلة ١/٢٠١.
الذهبي: المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي ٢/١٥٨.
(٢) المصدران السابقان.
ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٣.
الصفدي: نكت الهميان ص١٨٥.
السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٣٢.
الاسنوي: طبقات الشافعية الصغرى ٢/١٩٤.
العيني: عقد الجمان جـ/١٣ ميكروفيلم بجامعة الكويت رقم ٦٠٢ حوادث ٥٨٥هـ ص٧٦-٧٧.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠٠ الحسيني طبقات الشافعية ص٨١.
عبدالقادر بدران: منادمة الاطلال ص ١٣٢.
ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥٠.
(٣) الذهبي: المختصر المحتاج اليه ٢/١٥٨.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
المنذري: التكملة لوفيات النقلة ١/٢٠٢.
ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ص ١٥٠.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠٠.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣.
(٦) المنذري: المصدر السابق نفسه.
ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٣ مصدر سابق.
الصفدي: المصدر السابق ص١٨٥.
السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٢ المصدر السابق. =

obeikandl.com

ولم يكتف ابن أبي عصرون بالأخذ عن علماء الموصل وفقهائها بل ارتحل في سبيل العلم إلى بغداد التي كانت تعج في القرن السادس بالعلماء حيث كانت الحركة المدرسية التعليمية على أشدها في المدرسة النظامية وغيرها ولا بد لأي عالم يريد الابـداع والشهرة في شتى البقاع الإسلامية من ورودها والأخذ أو العطاء في رحابها.

ولما قدم ابن أبي عصرون إلى بغـداد اتصل بعلمائها الأجلاء الافذاذ فأتصـل بأبي عبـدالله البـارع وأبي بكر المزرفي[1] وسبط الخياط[2]، شيوخ الاقراء آنذاك وقرأ عليهم بالسبع والعشر. ولم يكتف ابن أبي عصرون بهذا، بل قرأ المـذهب (الشـافعي) والخـلاف على اسعد بن أبي نضر الميهني[3]،

= الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٤.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٧٩.
عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٢.
(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٣.
الذهبي: المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ٢/١٥٩.
السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٢.
الصفدي: نكت الهميان ص١٩٥.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤ ص ٢٧٩.
ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥٠.
عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٢.
(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٤/٢٥٦.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣.
(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان ٣/٥٣ مصدر سابق ذكره.
الذهبي: المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي ٢/١٥٩.
ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ص١٤٩.
الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٤. =

والأصول على أبي الفتح بن برهان[1]. وسمع من أبي القاسم بن الحسين، وأبي البركات البخاري، واسماعيل بن أبي صالح المؤذن، وهبة الله بن الحصين، وأبي علي الحسين بن الخليل النسفي وغيرهم[2].

ولم يترك ابن أبي عصرون فرصة تمر دون أن يستغلها لصالحه في طلب العلم فاستغل وجوده في بغداد ودرس النحو على عالميها انذاك وهما: علي بن الحسن بن دبيس وأبي دلف[3]. واتقن ما أخذه عنهما وعن غيرهما وحصَّل لنفسه قدراً كبيراً من علم النحو والقراءات والفقه الشافعي وغيرها.

ويبدو أن طموح عبدالله بن عصرون وتصميمه على بلوغ أرفع الدرجات

= النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٠٠.
ابن طولون: قضاة دمشق من الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ص ٤٩ ويقول خطأ: اسماعيل الميهني والصحيح ما جاء في المتن اعلاه.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/ ٢٧٩ المصدر السابق.
عبدالصاحب الدحيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/ ١٢ المرجع السابق نفسه.

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/ ٥٣ المصدر السابق نفسه.
ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ص ١٤٩.
السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ١٣٢ - ١٣٣.
الاسنوي: طبقات الشافعية الصغرى ٢/ ١٩٤.
الحسين (المصنف). طبقات الشافعية ص ٨١.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٤٩. المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد. المصدر السابق نفسه.

(٣) الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٥.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٠٠ ويقول ابن دبين بدلاً من ابن دبيس.
عبدالصاحب الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون ٢/ ١٢ لم يذكر اخذه عن أبي دلف.

العلمية بمعناها الواسع دَفَعَهُ إلى الرحيل والتنقل في شتى البقاع فارتحل عن بغداد إلى واسط حيث التقى هناك بقاضيها الشيخ أبي علي الفارقي ولازمه مدة للقراءة عليه وأخذ عنه فوائد «المهذب»[1].

وهكذا نرى أن أبن أبي عصرون قد تنقل ما بين الموصل وبغداد وواسط والتقى بكبار العلماء وأخذ عنهم ما وسعه الجهد وانتفع بما أخذ واتقنه حتى أصبح عالماً عظيما في هذا الميدان، فقرر العودة إلى بلده، الموصل، وقد سبقه ذكره وطار في الافاق صيته. ولما وصل الموصل تولى مهمة التدريس في مدارسها ومراكز العلم فيها وذلك عام ٥٢٣هـ، وبقي مدة يمارس التدريس، ويفتي في بلده وفق المذهب الشافعي[2].

---

(١) ابن خلكان: المصدر السابق نفسه.
الحسيني: طبقات الشافعيّة ص ٨١.
الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٤.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٣٣٣.
العيني: عقد الجمان ميكروفيلم جامعة الكويت جـ/١٣ رقم ٦٠٢ حوادث ٥٨٥هـ ص٧٦/٧٧.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠٠.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٤٩.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٧٩.
بدران (عبدالقادر) منادمة الاطلال ومسافرة الخيال ص ١٣٢.
ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥٠.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق.
الذهبي: المختصر المحتاج إليه ٢/٥٩.
السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٣.
الاسنوي: المصدر السابق نفسه.
الحسيني: طبقات الشافعية ص ٨١ مصدر سابق.

ويقول العماد الأصفهاني[1]: لقيته بالموصل عام ٥٤٢هـ، وهو مدرس المدرسة الأتابكية العتيقة، ثم ارتحل بعد ذلك إلى سنجار وأقام مدة بها يزاول مهنة التدريس والافتاء[2]، حتى اتصل بنور الدين محمود زنكي صاحب حلب .

عبدالله بن أبي عصرون ونور الدين محمود بن زنكي.

التحق عبدالله بن أبي عصرون بحلب سنة ٥٤٥هـ ودّرس بها وتوطدت علاقته بنور الدين محمود زنكي صاحب حلب انذاك ونال حظوه لديه وأصبح يعتمده في القضاء والفتيا ويأخذ برأيه ويقدره[3].

=النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس المصدر السابق نفسه.
الطباخ الحلبي: المرجع السابق نفسه.
بدران: المرجع السابق نفسه.
ناجي معروف: المرجع السابق نفسه.

(١) الاصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام: ٢/٣٥٢.
ناجي معروف: المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق نفسه.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس المصدر السابق نفسه.
ابن العماد الحنبلي: الشذرات ٤/٢٨٣.
الطباخ الحلبي: المرجع السابق نفسه.
بدران: منادمة الاطلال ص ١٣٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٣.
السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٣.
الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٤.
الحسيني: طبقات الشافعية ص ٨١ دون ذكر السنة.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠٠.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥٠ دون ذكر السنة.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣ دون ذكر سنة ٥٤٥هـ. =

ولما انتقل محمود نور الدين من حلب إلى دمشق بعد السيطرة عليها والقضاء على حكم البوريين عام ٥٤٩هـ، اصطحب معه عبدالله بن أبي عصرون وعلت منزلته في دمشق واصبح يمارس مهنة التدريس فدرّس بالزاوية الغربية من المسجد الأموي، وبالمدرسة الغزالية والنورية بالاضافة إلى نظر الاوقاف. ولكنه عاد أخيراً إلى حلب(١).

وفي حلب لقيه العماد الأصفهاني الكاتب عام ٥٦٢/٥٦٣هـ، وتوطدت العلاقات بينهما اكثر من ذي قبل(٢).

والمهم ان عبدالله بن أبي عصرون سواء ظل في دمشق ام عاد إلى حلب فإن منزلته لدى نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق والشام ظلت سامية وتميزت علاقته به، والدليل على ذلك ان نور الدين محمود قد أقام له مجموعة من المدارس اكراماً له واجلالاً لقدره في دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج وفوّض إليه التدريس بها، وتوظيف من يراه أهلاً لتولي مهنة التدريس فيها(٣).

= بدران: منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ص ١٣٢.
ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥٠.
عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٢.

(١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام ٢/٣٥٢.
ابن خلكان: وفيات الاعيان، المصدر السابق نفسه.
الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٥.
الاسنوي: طبقات الشافعية الصغرى ٢/١٩٤.
بدران: منادمة الاطلال ص ١٣٢ ويقول ولاه نور الدين تدريس العادلية. وهذا خطأ لأن العادلية قد بنيت فيما بعد.
عبدالصاحب الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٣.
ناجي معروف: المصدر السابق نفسه.

(٢) العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر المصدر السابق ٢/٣٥٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/٥٤، ٥/١٨٥. =

وخير دليل على الثقة المتبادلة بين نور الدين محمود وعبدالله بن أبي عصرون إن نور الدين صحب ابن أي عصرون كمستشار له عندما اراد ان يخضع الموصل لسلطاته عام ٥٦٦هـ اثر استبداد نائبها فخر الدين عبدالمسيح بالحكم أيام اميرها ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود.

وان نور الدين محمود لم يوافق على عقد صلح بينه وبين ابن اخيه في الموصل الا بعد ان درس ابن أبي عصرون شروطه بدقة ووافق عليها ونَعَتَها بأنها «نسخة جيدة»، عندئذ امضاها نور الدين محمود وحلف عليها وأقرها والزم نفسه بتنفيذها[1].

واعترافا بفضل ابن أبي عصرون هذا، وتقديرا لجهوده في هذا الميدان استقضاه نور الدين محمود زنكي على نصيبين وسنجار والخابور ومنطقتها وفوّض إليه الحكم والقضاء بتلك النواحي. ولكن ابن أبي عصرون لم يذهب إليها، وأناب عنه قضاة اعتقد بصلاحهم. وظل يلازم خدمة نور الدين زنكي ويباشر أمر التدريس بمدارسه الانفة الذكر. أي انه أصبح بمثابة قاض للقضاة آنذاك[2].

= العدوي: كتاب الزيارات بدمشق ص ٧١.
الصفدي: نكت الهميان، المصدر السابق ص ١٨٥.
الاسنوي: طبقات الشافعيّة ٢/١٩٤.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠١. العدوي: الزيارات ص ٧١.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢/٤٨٣.
بدران (عبد القادر)، منادمة الاطلال ص ١٣٢.
عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام ص ١١٠.

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٩٠.
(٢) البنداري: سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية البنداوي، ص ٥٢.

وظل عبدالله ابن أبي عصرون يمارس الحكم والقضاء في سنجار وحران ونصيبين والخابور وديار ربيعة، وتفقه عليه كثير من الطلاب هناك واصبح يقصد بيته لتلقي العلم والاخذ عنه[1].

وتجمع المصادر والمراجع[2] المتوفرة لدينا على ان عبدالله بن أبي عصرون عاد ثانية إلى دمشق عام ٥٧٠هـ، ليشارك في الاحداث التي اعقبت وفاة نور الدين محمود زنكي الذي توفي عام ٥٦٩هـ. وقد ارسل إليه صلاح الدين الأيوبي رسالة من مصر إثر توقيع امراء الشام انذاك اتفاقية مهينة مع الصليبين تدل على ضعفهم واستكانتهم وتخاذلهم امام جموع الفرنجة القادمة من أوروبا.

وكانت تلك الرسالة تعبيراً عن حنق صلاح الدين وغضبه على الأمراء المتخاذلين اللاهين اللاهثين وراء السلام الزائف مع عدو الله الصليبي امثال شمس الدين بن المقدم ومن لف لفه من الأمراء.

وتلك الرسالة لا شك مؤشرٌ يدل على أن صلاح الدين قد اعجب

= أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٨٩.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٦٣.

(١) المنذري: التكملة لوفيات النقلة ١/٢٠٥.
الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٤.
السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٣.
الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٤ المصدر السابق نفسه.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠١.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٧٩.
عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٣.
ناجي معروف: علماء النظاميات ص ١٥١.

بشخصية عبدالله بن أبي عصرون وانه كان يكن له الاحترام والتقدير ويعترف بقدرته على التأثير في مجريات الاحداث والعمل على افشال الاتفاق الصليبي مع امراء الشام.

ومما يدلنا على مقدار هذا الاحترام والتقدير ان صلاح الدين خاطبه في الرسالة اليه بقوله: «وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدَّى وتمرد»[1]. وأي دليل ابلغ من هذا على تقدير صلاح الدين لعبدالله بن أبي عصرون وللعلماء الافذاذ في شخصه.

عبدالله بن أبي عصرون وصلاح الدين الأيوبي

كان صلاح الدين على معرفة تامة بعبدالله بن أبي عصرون منذ ايام نور الدين محمود زنكي فكلاهما نشأ في ظله وتحت رعايته خاصة صلاح الدين. وكان الاثنان من رجاله الاكفاء احدهما يشتغل بالقضاء والحكم والفتيا والتعليم والعلم والآخر يشتغل بالأمور العسكرية ويوليها اهتماماً زائداً.

وتدل مجريات الحوادث منذ أيام نور الدين محمود زنكي على ان العلاقات بين الرجلين كانت سليمة تسيرها روح الود والمحبة والتقدير. فقد عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبادله الاحترام بمثله.

والدليل على ذلك كما اسلفنا تلك الرسالة التي بعثها صلاح الدين من مصر للشام إلى ابن أبي عصرون ولعل اختياره بالذات تفضيل له على غيره واعتراف بقدرته على التأثير في الاحداث، لذا كانت رسالته تحمل في طياتها نوعاً من العتب عليه واملاً في ان يعمل بجد لافشال تلك الاتفاقية الغادرة.

= (١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/ ٢٣١.

وكان عبدالله بن أبي عصرون لا يحبذ تلك الاتفاقية ولم يوافق عليها مع من وافق. ولعله كان يعاني الألم النفسي لما حل بالمسلمين من الضعْف بل كان يحبذ مجيء صلاح الدين من مصر ليعملا سويا وبانسجام تام لتحطيم مثل هذه الاتفاقية، والانطلاق إلى تحقيق الهدف المعلن، وهو طرد المحتل الصليبي الجاثم فوق الأرض الإسلامية في بلاد الشام.

ويبدو لنا أن ابن أبي عصرون من خلال ما ذكرناه كان يحبذ قدوم صلاح الدين من مصر إلى الشام ويؤيد هذا القول أنه لم يوقع اولاً على الاتفاقية شأنه في ذلك شأن امراء الشام وقضاته خاصة وأنه كان من الشخصيات الكبيرة في المجتمع وثانياً أنه وقف ضد الأمراء الذين طلبوا الاستمرار في معاداة صلاح الدين الأيوبي والعمل ضد قدومه إلى بلاد الشام، الأمر الذي جعل صلاح الدين يوليه قضاء ديار مصر[1].

ومع ذلك ذهب عبدالله بن أبي عصرون من دمشق إلى حلب مع الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود زنكي قبل قدوم صلاح الدين إلى دمشق. ولم يمكث طويلاً بل عاد إلى دمشق ثانية وكان بها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢هـ، وذلك عندما أشرف كمال الدين الشهرزوري قاضي الشام أيام صلاح الدين على الموت، بل كان من الذين غسلوه وكفنوه وسار على رأس المشيعين بجنازته بعد[2] موته.

(١) المقريزي: السلوك جـ/١ ق/١ ص٨٠-٨١.
ويقول: ان عبدالله بن ابي عصرون قد تولى قضاء ديار مصر من قبل صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٠هـ.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٠٨ يقول قدم ابن أبي عصرون من حلب لدمشق ٥٧٢هـ.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ٥٠ يقول هاجر ابن أبي عصرون من حلب إلى دمشق. =

وتشير الروايات المعاصرة إلى أن كمال الدين الشهرزوري عندما شعر بدنـو أجله فوَّض القضـاء في بلاد الشـام إلى ابن اخيه، أبي الفضـائـل القـاسم بن يحيى بن عبـدالله الملقب ضياء الدين. ولم يسع صلاح الدين

= سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ/٨ ق/١ ص٣٤١.

ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٣٣٣ يشير الى قدوم ابن عصرون من حلب لدمشق.

ابن طولون: قضاة دمشق من الثغر البسام ص٤٧ يقول هاجر ابن أبي عصرون من حلب لدمشق.

النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠١.

يقول: عاد ابن أبي عصرون إلى دمشق عام ٥٧٠هـ.

ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٤ يشير الى عودة ابن عصرون من حلب لدمشق عام ٥٧٠هـ.

أبوشامة: كتاب الروضتين ٢/٢٦٢ يشير إلى قدوم ابن ابي عصرون إلى دمشق من حلب عند صلاح الدين والصحيح من خلال استقراء هذه الروايات المختلفة.

ان ابن أبي عصرون كان موجوداً في دمشق وارسل اليه صلاح الدين رسالة يعاتبه فيها لأنـه لم يستغل نفوذه لافشال معاهدة الدماشقة مع الصليبيين، وكانت علاقته به حسنة من قبل ولكنه من المؤكد انه سار في ركاب الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود من دمشق الى حلب اكراماً له ولوالده ولكنه عاد إلى دمشق عام ٥٧٠هـ وولاه صلاح الدين قضاء ديار مصر في نفس السنة.

ومن المحتمل انه لم يذهب الى مصر وظل في الشام وأناب عنه. واما القول بانه هاجر من حلب إلى دمشق فيه شيء من الحدة في الاسلوب، هاجر فكيف يهاجر وهو مرضي عنه في حلب ودمشق ومن قبل الحكام نور الدين وابنه اسماعيل وصلاح الدين بعدهما فذهابه إلى حلب وعودته منها إلى دمشق تمَّ بحريته وارادته. وهذا الأقرب إلى الصحة.

ابن كثير: البداية ١٣/٣٥.

وجاء فيها ان كمال الدين الشهرزوري قد توفي عام ٥٧٦هـ وهذا أغرب ما ذكرته المصادر فكلها تجمع على انه توفي عام ٥٧٢هـ، وكذلك ابن كثير نفسه يؤكد وفاته عام ٥٧٢هـ في موضع آخر ١٢/٣٣٣ كما مر معنا سابقاً.

سوى الموافقة على هذا التفويض لأن ضياء الدين أهل للقضاء ليس الاَّ . لأن القضاء من الرتب العليا التي لا ينفع فيها توريث .

ولكن صلاح الدين في نفس الوقت كان يضمر في قرارة نفسه ان يفوض القضاء إلى ابن أبي عصرون صاحبه الذي يثق به والذي هو أهل لتولي هذا المنصب بالاضافة إلى وظيفة الافتاء في البلاد[1] .

ويدور في الذهن سؤال يحتاج إلى جواب، ما الذي جعل صلاح الدين يفضل عبدالله بن أبي عصرون على ضياء الدين أبن الشهرزوري مع ان ضياء الدين كان من الذين قدموا خدمات لصلاح الدين وكان هذا يحبه وهو كفء للمنصب؟ .

وللاجابة على هذا السؤال نعود إلى جذور المشكلة من أساسها فنقول من المعروف أن كلاً من كمال الدين الشهرزوري قاضي قضاة الشام ايام نور الدين محمود زنكي وشرف الدين عبدالله بن أبي عصرون احد الفقهاء، بل رأس الشافعية في زمنه، وصلاح الدين الأيوبي احد فرسان دولة نور الدين زنكي قد وجدوا في الحكم جنباً إلى جنب في الدولة الزنكية . وكانوا على معرفة تامة ببعضهم البعض وبأهداف كل منهم .

ويبدو أن جذور المشكلة تبدأ عندما ساءت العلاقات بين كمال الدين الشهرزوري وصلاح الدين فيورد ابن كثير في هذا المعنى[2] ان صلاح الدين

(١) البنداري : سنا البرق الشامي ص ١٠٨ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/٢٤٤ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨/ ق١/٣٤١ .
الاسنوي : طبقات الشافعية ٢/١٠٠ .
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٤ .
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٤ .

قد امضى لكمال الدين الشهرزوري ما أوصى به من استخلاف أبن أخيه ضياء الدين في منصب القضاء في بلاد الشام مع أنه كان يجد عليه لما كان بينه وبينه حين كان صلاح الدين قد سجنه في دمشق أيام نور الدين. ثم لما أخرج من السجن اتبع سياسة معادية لصلاح الدين ايام نور الدين زنكي، وكان يعاكسه ويخالفه في كل ما يقوم به ومع هذا فان صلاح الدين امضى وصيته. ولعل من اهم الاسباب التي دعته إلى الموافقة على هذه الوصية هو موقف كمال الدين الشهرزوري الأخير من احتلال صلاح الدين الأيوبي لدمشق عام ٥٧٠هـ، فقد وافق على هذا الاحتلال ما دام فيه مصلحة للإسلام ورحب بقدوم صلاح الدين.

وتؤكد روايات المصادر المعاصرة(١) ان صلاح الدين لما دخل دمشق واستعصت عليه قلعتها سار إلى دار كمال الدين الشهرزوري فانزعج القاضي لهذا لأنه كان من المفروض أن يخرج هو إليه ولكن عادة القضاة الشرفاء ان يسار إليهم بل لعل انزعاجه هذا كان لظنه بأن يناله سوءٌ لتأخره عن الخروج. والمهم ان كمال الدين لما عرف بصلاح الدين وقدومه إلى بيته خرج لاستقباله ورحب به وادخله وأجلسه. ثم بدأ صلاح الدين يهدىء من روع كمال الدين ولعله قد رأى ما ارتسم على جبهته من العبوس وقال له: «طب نفساً فالأمر أمرك والبلد بلدك»(٢).

ويسند عمر باشا(٣) في كتابه «الأدب في بلاد الشام» هذه المشكلة ويؤيد ان هناك خلافا بين كمال الدين الشهرزوري وصلاح الدين عميق الجذور

---

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٤/٢١٦ وغيره من المصادر السابقة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) عمر موسى باشا: الادب في بلاد الشام وعصور الزنكيين والايوبيين والمماليك، المكتبة العباسية بدمشق ط/٢/١٣٩١ /١٩٧٢م ص ٦٤.

ولعله أحد الأسباب النفسية الكامنة داخل صلاح الدين دفعته إلى تسليم الحكم لعبدالله بن أبي عصرون.

ويقول عمر باشا ما ملخصه[1]: ان علاقات كمال الدين وصلاح الدين لم تكن طيبة ايام نور الدين محمود زنكي، وكان كمال الدين يعاكس اراء صلاح الدين ومشاريعه ويقف حائلاً دون تحقيق اغراضه، ويعترض عليه في عدة أمور وذلك لدفعه إلى اتباع الشريعة الإسلامية في كل اعماله[2]. وكان كمال الدين يقف لصلاح الدين وعمه شيركوه بالمرصاد ويشكوهما بكثرة إلى نور الدين. ولا نغالي اذا ما قلنا كما تشير المصادر أو تلمح إلى ان نور الدين قد اوجد محكمة عليا (دار للعدل) بمفهومنا الحاضر لتكون قادرة على محاكمة كبار القوم ومنهم شيركوه. حتى أن هذه المصادر تشير فيما تشير إليه ان شيركوه عندما عرف بهذا تأكد ان نور الدين ما أقام هذه المحكمة الا له ولأمثاله فارتدع عما كان يقوم به من اعمال منافية للشرع أحياناً. وان هذه المحكمة (دار العدل) فرضت هيبة نور الدين على الجميع لامضاء شرع الله على الجميع[3] وهي لا شك مأثرة من مآثر نور الدين الكثيرة اعادت الحق إلى نصابه وفرضت هيبة الدولة وهيمنتها على كبار الأمراء امثال شيركوه وصلاح الدين وغيرهما.

ومهما يكن من أمر، فان هذه المسألة لم تمنع كمال الدين الشهرزوري من ان يهيىء الأمور في دمشق بطريقته الخاصة لاستقبال صلاح الدين لأنه اعتقد انه اكفأ من باقي الأمراء لمنازلة العدو الصليبي وهذا العمل من الاعمال المجيدة التي تحسب لكمال الدين الشهرزوري حيث وضع المصلحة العامة

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) ابن طولون: قضاة دمشق من الثغر البسام ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

للمسلمين فوق كل اعتبار وفضّل صلاح الدين خصمه القديم ان جاز لنا التعبير على باقي افراد مجموعة الامراء في بلاد الشام الذين أمضوا الصلح مع العدو الصليبي.

ولعل هذه السياسة هي التي اقنعت صلاح الدين هو الآخر بموقف كمال الدين الشريف من مصلحة المسلمين العليا وجعلته يزوره في بيته عندما تأخر عن الخروج، أو لعل زيارته له في بيته تعود إلى ضرب من ضروب السياسة الناجحة لصلاح الدين، اذ ان كمال الدين كان يتمتع برصيد شعْبي في دمشق. وانه كان يُقَدَّر ويحُترم حتى من جماعة الأمراء الذين امضوا الصلح مع الصليبيين عام ٥٧٠هـ. فكانت زيارة صلاح الدين له في بيته لكسب وده وود الشعب، وللجميع في بلاد الشام خاصة وان صلاح الدين في تلك الفترة كان بحاجة إلى نوع من الاعتراف الشعْبي به في بلاد الشام وبحاجة إلى مزيد من الاعتراف من جانب الامراء والوزراء فكانت زيارته عاملاً مساعداً له في هذا الميدان. ومن هنا وافق صلاح الدين على استمرار كمال الدين في منصبه قاضيا لقضاة بلاد الشام جميعها حتى توفي عام ٥٧٢هـ كما مر، بل ووافقه على ترشيح ابن أخيه لنفس المنصب بعده.

ثم ان صلاح الدين كان ميله مع شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون وذلك يعود في رأينا إلى جملة اسباب نوجزها فيما يلي:

أولاً: قوة شخصية عبدالله بن أبي عصرون العلمية والأدبية، ومكانته كشيخ للمذهب الشافعي في زمنه، وقد شهد له معظم المعاصرين بهذا[1].

ثانياً: حب صلاح الدين الأيوبي لأتباع مذهب الشافعي وتقديرهم

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥٠.

سيما وانه كان شافعياً الى درجة التعصب أحياناً وانه أراد ان يوَّحد الدولة على اساس المذهب الشافعي[1].

ثالثاً: احتضان صلاح الدين لعبدالله بن أبي عصرون عندما قدم إليه إلى دمشق لا بل تفويض قضاء مصر له كما روى المقريزي عام ٥٧٠هـ[2]. وتوجيه كتاب له يحضه على ابطال مفعول معاهد دمشق مع الصليبيين في نفس العام[3] لدليل على ان صلاح الدين يكن له الحب والتقدير ويتمنى ان يكون قاضيه. بل تعتبر الرسالة تمهيدا لاختيار في المستقبل.

رابعاً: ثم ان علاقات صلاح الدين وابن أبي عصرون كانت على درجة كبيرة من المتانة. وكان ابن أبي عصرون هو الذي تولى الاشراف على تزويج صلاح الدين الأيوبي بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين المدين انر، وزوجة السلطان نور الدين محمود زنكي التي كانت تقيم بقلعة دمشق عام ٥٧٢هـ[4].

خامس: خلاف عبدالله بن أبي عصرون مع كمال الدين الشهروزري الدفين في النفس جعل ابن أبي عصرون يسعى بطرقه الخاصة لدى صلاح الدين ويوحي إليه بأنه يرغب في القضاء والفتيا خاصة بعد وفاة كمال الدين الشهرزوري القاضي الشافعي نفسه. وكان ابن أبي عصرون لا يظهر خلافه مع كمال الدين حفاظاً على وحدة المذهب الشافعي فكلاهما له تقديره في هذا الميدان ولكنه لما عرف باحتضار كمال الدين وكان بحلب قدم مسرعاً إلى دمشق ولما التقى به تعانقا طويلا وبكيا. ثم لما قضى كمال نحبه غسله ابن

---

(١) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام ص ٨٠.

(٢) المقريزي: السلوك جـ/١ ق/١ ص٨٠-٨١.

(٣) أبوشامة: كتاب الروضتين ١ /٢٣١.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ/١ ق/١ ص٣٣٨ حوادث ٥٧٢هـ.

أبي عصرون وكفنه وكان على رأس المشيعيين لجنازته.

وقد صوَّر لنا الوهراني[1] هذا الخلاف باسلوبه الرمزي الحاذق في مناماته ومقاماته وذلك عندما تخيل محاورة يوم الحساب يتدخل فيها جبريل عليه السلام إلى جانب كمال الدين الشهرزوري لكرمه فيطلب من الحق جل جلاله ان يقف كمال الدين بين الجنة والنار، ويحضر المقام المشهود في كل يوم حيث تقام مجالس الحكم والحساب ويتم فيها بارادة الله ما يشاء. ويصور الوهراني ان كمال الدين قد قدّم في هذه المجالس مقدمات رديئة وفاسدة في حق أبن أبي عصرون ويقول الوهراني ما اظنه بناج من شرها[2].

وهذا لا شك تصوير للخلاف بين ابن أبي عصرون وكمال الدين يعبر عن أدق خلجات النفس البشرية.

سادساً: وجود شخصيات هامة في دولة صلاح الدين الأيوبي تحبذ ان يسند قضاء قضاة الشام إلى عبدالله بن أبي عصرون امثال القاضي الفاضل الذي كانت علاقاته به متميزة وكان ابن أبي عصرون كثيرا ما يخاطبه في مراسلاته بمجير الدين القاضي الفاضل دليلاً على احترامه وعلو شأنه[3] وكذلك الفقيه عيسى الهكاري احد امراء صلاح الدين والذي تتلمذ على يدي عبدالله بن أبي عصرون والذي كان يميل إلى استاذه ويتمنى ان يراه قاضيا لقضاة الشام.

---

(١) الوهراني (ركن الدين محمد بن محمد بن محرز): مناامات الوهراني ومقاماته ورسائله تحقيق ابراهيم شعلان، ومحمد نغش. دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م. ص٢٨.

(٢) الوهراني: المرجع السابق نفسه والصفحة.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/١٦٣.

ولا شك في أن لهاتين الشخصيتين اثرا كبيراً جعل صلاح الدين يميل إلى عبدالله بن أبي عصرون ويسند إليه القضاء. فالناس فيما يذهبون ويهوون مشارب ومذاهب.

سابعاً: خطة عبدالله بن أبي عصرون وأعوانه الذين بدأوا يذيعون ان ضياء الدين سيعزل وربما يناله المكروه فتحرج موقف الرجل ودفعه هذا العمل إلى تفضيل السلامة وقدّم استقالته من القضاء والتي قبلت بسرعة(١) ودون تردد مما يفسر لنا ان صلاح الدين كان «يميل إلى عبدالله بن أبي عصرون مع انه في نفس الوقت لا يريد الاحراج لضياء الدين وإقالته(٢) خاصة وانه ممن قدم له خدمات جلى(٣) وهو كفء في القضاء ولم يرد الاساءة

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥٠.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٤.
ابن طولون الصالحي: قضاة دمشق ص ٤٧.
عمر موسى باشا: الادب في بلاد الشام ص ٨٠.

(٢) أبوشامة: كتاب الروضتين المصدر السابق نفسه والصفحة.
ويقول: كان صلاح الدين يؤثر ان يفوض القضاء الى ابن أبي عصرون ولا يرى عزل الضياء الشهرزوري لخدماته وكفاءته.
ابن واصل: مفرج الكروب: المصدر السابق نفسه والصفحة.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٠٨.
ويصور الأصفهاني الموقف ابلغ تصوير باسلوبه الأدبي المؤثر فيقول كما لخصه البنداري في سنا البرق الشامي:
قدم شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون من حلب إلى دمشق وقد انزله السلطان صلاح الدين بدمشق، وهو شيخ المذهب الشافعي وأقوم العلماء بالفتيا واعرفهم بما تقتضيه الشريعة من مصالح الدين والدنيا. والسلطان يؤثر ان يفوض اليه منصب القضاء ولا يرى عنه عزل الضياء وافضى بسر مراده إلى الأجل الضيائي بفسخه =

إليه. ولكنه الآن هو الذي قدم الاستقالة بنفسه فقبلها

ولكن مهما قيل فان مجمل هذه الأسباب مجتمعة هيأت الظروف لأن يتولى شرف الدين بن أبي عصرون قضاء القضاة في جميع ممالك بلاد الشام الخاضعة لصلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٣هـ[1].

= واستشعر ضياء الدين من عزله وتزلزلت قدمه في شغله ولو قوى نفسه ونفسه وثبت على الإباء المحض اسمه لما خرج القضاء على حكمه ولا واجه السلطان بصرفه عن منصب عمه. واشاروا عليه بالاستعفاء وانه كاره لمنصب القضاء فكتب يستعفي فقيل لا وجه لاستغنائك فلح القول فاستفهم عن معنى طلبه وابداء سببه فقال: «ما اوثر فراغ الشر والخلاص من تبعات هذا الأمر فأجيب سؤله واجيب سؤاله».

ويستخلص من هذا ان ضياء الدين قد اثر السلامة بالاستقالة لما عرف ان هناك من يسعى لعزله كالقاضي الفاضل والفقيه عيسى الهكاري وهما من كبار الامراء وانهما واتباعهما لا يريدانه بل يريدان عبدالله بن ابي عصرون وانهما لا شك سيسعيان الى الايقاع به وايجاد المشاكل في طريقه فاستقال من منصبه. انظر أيضاً ابن خلكان: وفيات الاعيان ٤/٢٤٤.

حيث يقول: وأقال الضياء نفسه لما عرف بميل السلطان إلى ابن أبي عصرون.

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٣.

أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٤.

ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥١.

ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ص ١٥٠.

العيني: عقد الجمان مخطوط ميكروفيلم جامعة الكويت جـ/١٣ رقم ٦٠٢ ص٧٦/٧٧.

النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠١.

ابن طولون: قضاة دمشق ص٥٠.

الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٨٠.

خير الدين الزركلي: الاعلام ٤/٢٦٨.

وكـان شرط صلاح الـدين على هذا التعيين ان يكـون محيي الـدين أبوالمعالي محمد بن زكي الدين والأوحـد داود نائـب كمال الدين الشهرزوري في الحكم والقضـاء قاضيان يحكـمان، وهمـا عن منـابته يوردان ويصدران وتوليتهما بتوقيع من السلطان نفسه(١).

عبدالله بن أبي عصرون يُصاب بالعمى:

وظـل شرف الـدين بن أبي عصرون قاضيا يحكم بالشرع حتى عام ٥٧٧هـ. حيث أصيب انـذاك بالعمى وفقـد بصره فتكلم الناس في عدم أهليته للقضاء وطعنوا بها(٢). وهنا وقع صلاح الدين في حرج شديد وورطة فقهية، فهو لا يريد ان يمس مشاعر صاحبه الذي فقد بصره ويعزله عن

= عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ص ١٣.
الذهبي: المختصر المحتاج اليه ٢/١٥٩.
السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٣٢.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣.

(١) البنداري: سنا البرق الشامي المصدر السابق نفسه.
أبوشامة: المصدر السابق نفسه.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥٠-٥١ المصدر السابق نفسه ويقول: وكانا في حكم المستقلين وان كانا في الظاهر نائبين عن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون. ويقول كذلك ان صلاح الدين كان يميل الى افراد بيت زكي الدين.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٤ باختصار.
ابن طولون: قضاة دمشق مصدر سابق ص ٤٧.

(٢) البنداري: المصدر السابق نفسه.
أبوشامة: المصدر السابق نفسه.
ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٤.
ابن واصل: المصدر السابق نفسه.

منصب القضاء، وهو في نفس الوقت يتعرض لأقوال الفقهاء التي تطعن في بقاء ابن أبي عصرون في منصبه لعدم أهليته.

وهنا تصدى شرف الدين بن أبي عصرون لهذه المشكلة بنفسه واصدر كتاباً في جواز قضاء الأعمى مخالفاً في هذا مجموع الفقهاء، وكان سند ابن أبي عصرون فيما ذهب إليه من جواز قضاء الأعمى وجه ورد في جمع الجوامع للروياني اختاره شرف الدين بن أبي عصرون وصنف فيه جزءاً في جواز قضاء الأعمى وظل هو قاضيا لما أصيب بالعمى.

وكانت حجة الجمهور ان الأعمى لا يعرف الخصوم ولا الشهود فكيف يحسن قضاؤه فيما يعرض عليه. وحجة من جوَّز هذا ان شعيباً نبي الله كان أعمى فما دام هذا نبي مرسل فالقاضي بطريق أولى أن يكون قاضيا لأن النبي اشرف من القاضي لتفضيل الله له على غيره. وقيل ان شعيباً لم يثبت عماه، فلو سلمنا بعمى شعيب فان الذين آمنوا به كانوا قلة فربما انهم لم يحتاجوا إلى من يحكم بينهم. ولو فرضنا انهم احتاجوا فان الوحي ينزل على النبي شعيب يزوده بالحكم الفاصل ولا يتسنى هذا للقاضي اذ لا وحي ينزل عليه[1].

وامام هذه المشكلة التي يقف فيها شرف الدين بن أبي عصرون لوحده في جانب وجميع الفقهاء في الجانب الآخر بالشام. انتابت صلاح الدين الحيرة فماذا عساه صانع؟.

التفت صلاح الدين إلى القاضي الفاضل وكان في مصر انذاك فأرسل اليه يستعين به على حل هذه المشكلة ويعلمه بانه يتوجب عليه ان يتصل بالشيخ أبي طاهر بن عوف الاسكندري ويسأله عما ورد من الاحاديث في

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥١.
الصفدي: نكت الهميان ص ٦٠.

قضاء الأعمى[1]، علّه يجد له حلاً لما استعصى عليه.

ثم لم تلبث ان وردت اجابات القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي وجاء في فصل في جواز الأعمى للقضاء أو منعه ما يلي[2]: «لن يخلو الأمر عن قسمين، والله يختار للمولى خيرة الاقسام ولا ينسى له هذا التخريج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام: إما ابقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليه المجازاة لأول زلة وترك الاقالة لأقل عثره، فطالما بعث حب المناقشة الراجحة على اكتساب الاخلاق الصالحة.

وإما ان يفوض الأمر إلى الامام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ولا يجوز ان يتقدم عليه في بلد الا من هو ارفع طبقه في العلم منه».

وفي هذا الفصل الرائع من رسالة القاضي الفاضل وجد صلاح الدين المخرج بلا حرج فابقى شرف الدين على رأس القضاء وفوّض الأمر إلى ولده محيي الدين إبي حامد محمد بن شرف الدين على ان يكون والده هو الحاكم الحقيقي[3] ويظهر للناس على أنه نائب عن أبيه بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٤.
ابن واصل: مفرج الكروب ١٢/٥ باختصار.
الصفدي: نكت الهميان ص١٨٥.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٤٠، ١٥٠.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٦٧ ـ ٦٨.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٣.
أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥١. =

وهكذا بقي شرف الدين بن أبي عصرون يمارس قضاء القضاة في بلاد الشام وولده نائب عنه، بفضل دفاعه عن نفسه والغوص في اعماق الفقه واستخلاص ما يجيز قضاء الأعمى ثم تضامن صلاح الدين معه ومساندة صاحبه القاضي الفاضل بالحق.

وظل ولده محيي الدين أبوحامد ينوب عنه في القضاء حتى وفاته عام ٥٨٥هـ[1]. فاستقل محيي الدين بعدها بالقضاء حتى عام ٥٨٧هـ، حيث

= ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٤.

ابن طولون: قضاة دمشق ص ٤٧: ويقول استقل أبو حامد بالحكم عن والده لضعف بصره والصحيح ان شرف الدين بن أبي عصرون ظل هو الحاكم الفعلي وابنه كالنائب عنه.

وفي ص ٥٠ يقول:

فولى صلاح الدين نجم الدين ابنه مكانه تطييباً لنفسه وهو يخالف فإبنه الذي ولي القضاء هو محيي الدين وليس نجم الدين.

عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام ص ٨٠ ـ ٨١.

(١) ابن الاثير: الكامل ١٢/ ٤٢ ويقول الوفاة في رمضان ٥٨٥هـ.

ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/ ٥٥ الوفاة: الثلاثاء ١١ رمضان ٥٨٥هـ.

الذهبي: دول الإسلام ٢/ ٩٧ الوفاة ٥٨٥هـ.

ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار. رمضان ٥٨٥هـ.

الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٥. الوفاة: رمضان ٥٨٥هـ.

ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٣. الوفاة عام ٥٨٥هـ.

المقريزي: السلوك جـ/١ ق/١ ص١٣٠. الوفاة ١١ رمضان ٥٨٥هـ.

العيني: عقد الجمان ميكروفيلم بجامعة الكويت جـ/١٣ رقم ٦٠٢ ص٧٨. الوفاة ليلة الاثنين ١١ رمضان ٥٨٥هـ.

أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٩.

ابن طولون: قضاة دمشق ص٥١. الوفاة رمضان ٥٨٥هـ.

الحسيني: طبقات الشافعية ص ٨١. الوفاة رمضان ٥٨٥هـ. =

عزله السلطان صلاح الدين واستبدله بابن الزكي لميله إليه[1]. ولعل هذا الميل يعود إلى جملة من الأسباب سنناقشها فيما بعد.

يقول الصفدي[2]: «وكان القاضي محيي الدين بن زكي يترك النيابة عن أبن أبي عصرون» وهـذا معنـاه عدم الاستجابة إلى ما أراده صلاح الدين الأيوبي عندما عيّنه نائبا لشرف الدين بن أبي عصرون، الأمر الذي اضطر معه صلاح الدين إلى استدعاء مجد الدين بن النحاس والد العماد عبدالله الـراوي أحـد كبـار الوجهاء العلماء وكلفه بمهمة الاتصال بالقاضي محيي الـدين بن الزكي بل أمره أن يضرب على علامته في مجلس حكمه. فلزم ابن الزكي بيته حياءً وخجلاً.

وهنا اضطر شرف الدين بن أبي عصرون إلى ان يختار شخصية أخرى غيره تنوب عنه في القضاء فأختار ضياء الدين الدولعي الخطيب[3] وارسل إلى الخليفة العباسي يخبره بالنيابة مع البدر يونس الفارقي، الاَّ أن هذا لم يستجب لهذا الاختيار بدوره ويعود سبب احجام هذين عن تولي منصب نيابة القضاء لشرف الدين ابن أبي عصرون في اعتقادنا إلى اسباب منها:

اولاً: إمـا ان هذين القاضيين لم يودا ان يعيشا في الظل في نيابة ابن أبي

= العدوي: كتاب الزيارات ص ٧١. الوفاة: رمضان ٥٨٥هـ.
البغدادي: هدية العارفين ١/٤٥٧. الوفاة عام ٥٨٥هـ.
خير الدين الزركلي: الاعلام ٤/٢٦٨.

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٣.
ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٥١.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥١.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ط/٢ اغناء س. ديدرينغ ١٣٩٤/ ١٩٧٤م ٤/١٦٩.

(٣) الصفدي: الوافي، المصدر السابق نفسه.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥٣.

عصرون القوي الشخصية والهيبة.

ثانيا: أو انهما كانا من اتباع كمال الدين الشهرزوري وابن اخيه ضياء الدين الذي تولى ابن أبي عصرون القضاء بعده.

ثالثاً: أو انهما لم يريدا الانخراط في الحياة العامة ويمارسا الحكم في وسط يمكن ان يؤثر عليهما فيه رجال من اتباع ابن أبي عصرون كالقاضي الفاضل أو غيره من الأمراء وعلية القوم.

والمهم ان شرف الدين بن أبي عصرون لم ييأس من العثور على شخصية تقبل نيابته في القضاء فاهتدى إلى جمال الدين ابن الحرستاني الذي أجابه عندما دعاه لاستلام نيابة القضاء عنه[1] وظل ابن الحرستاني نائبا لشرف الدين طيلة حياته القضائية حتى توفى عام ٥٨٥هـ، وكذلك نائبا لابنه القاضي محيي الدين أبي حامد حتى عُزل عن رتبة القضاء عام ٥٨٧هـ.

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٤/١٦٩ مصدر سابق.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥٣.